التحام الإيمان والأخلاق

رؤية بديع الزمان النورسي

د. عبدالله الجهاد(*)

الأخلاق والعلم، والأخلاق والإيمان، والعلم والإيمان، عناصر متداخلة يصعب الفصل بينها، وإن كان فلاسفة الأخلاق لا يدرسونها متكاملة، فالعلم بالنسبة إليهم يمثل العقل، والأخلاق تمثل السلوك الإنساني، والإيمان يمثل الجانب الروحي في الإنسان.

ويعد الإيمان القاسم المشترك بين الطرفين العلم والأخلاق، فالعلم بدون أخلاق يسعى إلى إنتاج ما يخرب البشرية، ويهدد الإنسان اجتماعيا واقتصاديا، والأخلاق القائمة على العقل دون إيمان تسعى إلى أخلاق محلية لا أخلاق كونية، والإنسان لم يعد حبيس منزله، أو مجتمعه، وإنما الوسائط المتعددة للتواصل أتاحت له فرصة الانسجام والتفاعل مع الآخر في كل أنحاء المعمور بلا رقيب إلا رقيب الإيمان والأخلاق المستندة إلى الإيمان، ومن يعتقد أن العلم مرتبط بالعقل لا بالأخلاق كمن يعتقد وجود الإنسان جسما بلا روح، ومن يدعي أن طريق العقلانية أو العلم هي المؤدية إلى الإنسانية فقد جانب الصواب" فيا ترى كيف بالطريق العقلاني الذي يتبعه يفضي به إلى نقيض مقصوده ؟ الم يكن يريد أن يزداد به استقامة فازداد اعوجاجا؟ بلى".(١)

إن تداخل العلم مع الأخلاق والإيمان جعل المنظرين يتخذون طرقا شتى للبرهنة على مساراتهم النظرية فتنوعت المدارس الأخلاقية في العصر الحديث تبعا للتغيرات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ولهذا يرى عزت السيد أحمد أن لمذاهب الأخلاق مصادر متنوعة للقيم الأخلاقية:

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق - جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء - المملكة المغربية.
eljihadabdellah2003@yahoo.fr

(١) طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص: ١٣ المركز الثقافي العربي ط،٢٠٠٠ الدار البيضاء، المغرب.

الاتجاه الديني الذي يرى أن الله تعالى هو أصل القيم الأخلاقية.

الاتجاه الاجتماعي الذي يجعل المجتمع هو مصدر القيم الأخلاقية، فما تواضع عليه المجتمع صوابا فهو صواب، وما تواضع عليه خطأ فهو خطأ.

الاتجاه النفسي الذي يرى أن الفرد هو سيد قيمه.

الاتجاه الاقتصادي الذي يرى أن البنية الاقتصادية هي التي تحدد القيم الأخلاقية للأفراد، فهناك أخلاق الفقراء وهناك أخلاق الأغنياء.(١)

وإذا استثنينا الاتجاه الأول، فكل الاتجاهات الأخرى تنم عن أفكار بعيدة عن الإيمان الديني وعن نمطية الحياة في المجتمعات الإسلامية، وإذا لم يكن وازع ديني يظهر الخير والشر، ويثيب الخير على فعله ويعاقب الشرير على جرمه انقلبت الأرض إلى اصطبل تتناطح فيه البهائم البشرية ولم نعد نفرق بين النفس البهيمية والنفس الإنسانية، دون مراعاة ما ينتظرها في مآلها، يقول الجاحظ: "إن الدهري ليس يرى أن في الأرض دينا أو نحلة أو شريعة أو ملة، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه، وللحرام نهاية ولا يعرفه، ولا يتوقع العقاب على الإساءة، ولا يترجى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده، والحق في حكمه انه والبهيمة سيان، وانه والسبع سيان، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه، وليس الحسن عنده إلا ما وافق هواه، وان مدار الأمر على الإخفاق والدرك،وعلى اللذة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وان قتل ألف إنسان صالح لمنالة درهم ردئ."(٢)

والقرآن الكريم يعبق بالآيات التي تربط الأخلاق بالإيمان،يقول عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * الاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المومنون: ١-٦) ويقول كذلك في كتابه العزيز ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٤)

---

(١) عزت السيد احمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص:٦٦ اتحاد كتاب العرب، دمشق٢٠٠٥.

(٢) الجاحظ، الحيوان ج،٧، ص:١٣ تحقيق عبد السلام هارون،ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ت،١٣٨٧ه ١٩٦٨م.

وعز جلاله عندما يربط في آياته الكريمة بين الإيمان والفضائل الأخلاقية، فذلك لسمو هذه الأخيرة، ولإشراقة الإيمان، وروحانيتها هي روحانية الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله، "إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلي عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلم الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، .....الإيمان هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية."[١]

والرسل صلوات الله عليهم هم مبلغو الرسائل الأخلاقية إلى كافة البشر، يقول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".[٢]

"وان آثار محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيرته المباركة، وتاريخ حياته تشهد - مع تسليم أعدائه – بأنه لعلى خلق عظيم، وأنه اجتمعت فيه الخصال العالية كافة وتجمعها وإحاطتها، توليد عزة النفس،التي تولد شرفاً ووقاراً يترفعان عن سفساف الأمور، كترفع الملائكة وتنزههم عن الاختلاط بالشياطين، فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلا بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تتنزه وتتبرأ وتترفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها."[٣]

وإقامة الشعائر الدينية التي أوصى بها الله تعالى ورسوله لهي من صميم الأخلاق الإسلامية، ويجب ألا نفصل بين الشعائر الإسلامية والقيم الأخلاقية، لان الشعائر الإسلامية إن لم تترك الأثر الفعال في نفس المسلمين، لإبعادهم عن الزلات، وعن الشر، وعن الفحشاء والمنكر تكون كمن يعمل ولا يستفيد من عمله "فالغرض من الشعيرة هو ما يتركه أداؤها من آثار مخصوصة في القائم بها تنقله من الحال التي هو عليها إلى حال أخرى تفضلها".[٤]

ويرى النورسي أن الله خلق الشياطين والملائكة جميعا ممثلين للشر والخير، وان الشيطان بدسائسه يلبس الحق بالباطل ويلبس الباطل بالحق، فيوهم الفرد بتصديق

---

(١) سعيد النورسي، الكلمات، ص:٣٤٨ ترجمة إحسان قاسم الصالحي دار"سوزلر"للنشر، استانبول، ط،٣، ت١٤١٩ت١٩٩٨م

(٢) صحيح البخاري باب الأدب

(٣) النورسي، صيقل الإسلام ص:١٤٣، كليات رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي رقم ٨ قرص مدمج

(٤) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمان، ص:٥٢

الكفر، وبهداية الضلالة، وبالتشكيك في اليقين، وسوء الظن في الخير،إلى أن يخرب عقل الإنسان، ويفسد عليه حياته، وينسيه سعادته الباقية، ويلهيه بلذته وسعادته الفانية، ويجعله عنصرا فعالا في تخريب مجتمعه وإفساد دينه القويم، وينزع عن قلبه الإيمان بالله ورسوله الأمين لمرشد للدين السديد.[١]

ويتساءل النورسي، كيف تقوى شرذمة الشر على قلعة الخير؟ وكيف تهيمن النفس الأمارة بالسوء على النفس المطمئنة الخيرة؟ وكيف يسود الشر مع أن الحياة مليئة بالخير؟ لاشك "أن الضلالة والشر بأكثريتها المطلقة شيء عدمي وسلبي وغير أصيل، وهي إخلال وتخريب.أما الهداية والخير فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشيء ايجابي وأصيل وهي إعمار وبناء."[٢] لأن الإعمار طويل سلمه وجليلة منافعه، وصعب مناله، وكثيرة متاعبه أما التخريب فسهل إدراكه، وقذرة نتائجه، وعفنة ثمراته، والشيطان يحث على فعله، ويبارك نتائجه، ويزين الاستمرار فيه، "وان حياة الإنسان التي تبقى باستمرار أعضائه الأساس ضمن شرائط الحياة، مع أنها تخص قدرة الخالق جل وعلا، إلا أنها تتعرض إلى الموت-الذي هو عدم بالنسبة لها-إذا ما قطع ظالم عضوا من جسم ذلك الإنسان. ولهذا سار المثل: التخريب أسهل من التعمير".[٣]

وإن الشر مهما طال في الحياة، وظن انه متغلب على الخيردائما، فلايمكن التوهم بأنه سيظل مسيطرا مدى الحياة، وإنما لابد للخير أن يتغلب، ولو نسبيا، في الحياة الفانية، ولكنه سيستبد بالأرواح البشرية في عالم البقاء "فقد ثبت بشهادة العلوم جميعها، وبتصديق الاستقراء التام الناشئ من نظر الحكمة: إن الحسن والخير والحق والكمال، هو المقصود بالذات والغالب المطلق في خلق العالم. أما الشر والقبح والباطل، فهي أمور تبعية ومغلوبة ومغمورة، وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة".[٤]

---

(١) النورسي، اللمعات، ص:١١٣ ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار"سوزلر"للنشر، استانبول، ط،١، ت١٤١٣ت١٩٩٣م

(٢) نفسه، ص:١١٠

(٣) نفسه، ص:١١٠

(٤) النورسي، صيقل الإسلام، ص:٥٣

فهل خلق الله الشر والخير جميعا وترك للإنسان حرية اختيار أفعاله؟ أو خلق الخير وحده ولكن الشيطان وهو الوجه الثاني المعارض لفعل الخير الذي يوسوس دائما للإنسان؟ ألم يزين لآدم فعل المحظور فأخرجه من الجنة؟

وإن في الإنسان نفسا نزاعة للهوى والتشهي ولا تجد مبتغاها إلا في الشر. هذه الأسئلة أثيرت منذ نشأة الفكر الأخلاقي ومازالت تثار إلى زمننا هذا وقد خص النورسي صفحات للخوض في هذا الموضوع، فإذا كان المعتزلة في، رأيه، يرون أن خلق الشر راجع لأفعال الإنسان، فانه يخالفهم الرأي، فما خلقت الشرور كلها من أجل الشر وتخريب البشرية، ولكن يجب أن ينظر إلى الشر بنتائجه القصيرة والبعيدة المدى، وينظر إليه بأسبابه العميقة التي يعلمها الله لا للأسباب الظاهرة السطحية، فقد تكون نتائج أحد الشرور إيجابية فيتحول الشر إلى عنصر فعال إيجابي، "إن خلق الشر ليس شرا، وإنما كسب الشر شر، لان الخلق ينظر إليه من حيث النتائج العامة، فوجود شر واحد، إن كان مقدمة لنتائج خيرة كثيرة، فان إيجاده يصبح خيرا باعتباره نتائجه، أي يدخل في حكم الخير. فمثلا: النار لها فوائد ومنافع كثيرة جدا، فلا يحق لأحد أن يقول: إن إيجاد النار شر إذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرا ووبالا على نفسه".[١]

وإن الإنسان كما يرى النورسي تحكمه مقولتان أساسيتان يجب ألا تسيطر إحداهما على الأخرى، وألا نسعى للتخلص من إحداهما، مستندين إلى أولاهما لتخليص أنفسنا من تبعات المسؤولية، وهاتان المقولتان هما القدر والجزء الاختياري، فليست أعمال البشر كلها قدر، فمنها ما ليس للفرد تدخل فيه، فيعفى من المسؤولية عليه، ويعفى من الجزاء، ومنها ما له تدخل مباشر في أفعاله، فهو مسؤول عنه، ولا يعفى من العقاب الدنيوي والأخروي. يقول النورسي: "إن القدر والجزء الاختياري هما في أعلى مراتب الإيمان والإسلام قد دخلا ضمن المسائل الإيمانية، إلا أنهما ينقذان النفس الإنسانية.. فالقدر ينقذها من الغرور، والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية. وليسا من المسائل العلمية والنظرية التي تفضي إلى ما يناقض سر القدر وحكمة الجزء الاختياري كليا بالتشبث بالقدر للتبرئة من مسئولية السيئات التي اقترفتها النفوس الأمارة بالسوء والافتخار بالفضائل التي أنعمت عليها والاغترار بها وإسنادها إلى الجزء الاختياري."[٢]

---

(١) النورسي، اللمعات ص:١١٧

(٢) النورسي، الكلمات ص:٥٤١

فالعقل موهبة من الله تعالى خص بها الإنسان ليميز بين الصالح والطالح، وليلبي مطامح جزئه الاختياري "ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبيين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة."[١]

وإن القران الكريم في كثير من الآيات يذكر بان الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، مما يدل على الأصل الطيب، والروح الخيرة التي تدعو إلى السمو والكمال، وسعادة الإنسانية، ولكن الإنسان الذي تسكن فيه النفس الأمارة بالسوء التي تنحرف به عما ألهمه الله من عقل يفصل به بين الخير والشر، أو هو يعرف الخير ويتجنبه عن قصد، أو يعرف الشر ويتمسك به "ولا يفسد الإنسان إلا عدم استخدامه للقوى والمواهب التي أودعها الله قلبه، يقول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف : ١٧٩).

ولما كان الإنسان غير محدود الآمال والطموحات، ولما كانت القوانين البشرية الوضعية المحدودة غير مستطيعة إيفاءه حقه، وتنبيهه إلى مخاطر الطريق، وعدم القدرة على إسعاد البشرية آنيا ومستقبلا، دنيا وآخرة "احتاج إلى شريعة إلهية خالدة تحقق له سعادة الدارين معا مادة ومعنى، وتتوسع حسب قامة استعداداته ونموها".[٢]

فالإنسان مسؤول عن سيئاته مسؤولية كاملة، والسيئات تؤدي إلى التخريب الكامل وقد تؤدي سيئة واحدة من شخص تافه إلى تخريب خير أسهم فيه مجموعة من الطيبين زمنا كثيرا.[٣]

ويرى النورسي أن التخريب إذا كان أساسه الإنسان، وترد المسؤولية الكاملة إليه،،فان الحسنات التي يقوم بها ليست من إنتاجه، ولا يحق له أن يباهي بها أو يفاخر،لان الله تعالى هو مصدر الخيرات، وهو من وهب الناس الطيبوية والفضيلة والخير" فالرحمة الإلهية هي التي أرادت الحسنات، واقتضتها، والقدرة الربانية هي التي أوجدتها"[٤] ويقول في مكان آخر: والله تعالى هو "الذي أرشدنا إلى الحق المبين، بقرآنه

(١) الجاحظ، الحيوان ج١، ص:٢٠٤

(٢) محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص:٧٢ دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٠.

(٣) النورسي، الكلمات، ص٥٤

(٤) نفسه، ص:٥٤٢

المعجز البيان الذي بين بقواعده –من كتاب العالم- قوانين الله العميقة الدارية بيد القدر، المسطرة على صفحة فيحقق بأحكامه العادلة رقي البشرية، وسمو نظامها، ودقة اتزانها، فأصبح حقا مرشدا وهاديا إلى سواء السبيل".[١]

وإن للخير والشر نتائج وعللا، فالإنسان إن أدرك خيرا عده من أسباب عمله، ونتيجة لجده وعمله، وإن أصابه شر فقدر من الله تعالى، وليس له سبب في ذلك، والمسؤولية ترد إلى الله تعالى المنزه عن إيجاد الشر،ولكن الإنسان في جزئه الاختياري مسؤول عما يرتكبه من أعمال خيرها وشرها، ولهذا يقسم النورسي الأسباب والعلل إلى: علل ظاهرية وعلل حقيقية، فالله يعدل وفق العلل الحقيقية التي لا يدركها الإنسان في حينها، ولا يعرف مصادرها، بل يرى العلل الظاهرية الآنية فيحكم على الله تعالى بالظلم، فهو عز جلاله لايرى الحوادث آنيا، ولا يحكم على الإنسان في ظرف معين، ولكن يستقري تاريخه الأخلاقي والعملي والديني، واتباع أوامره واجتناب نواهيه – فللسيئة مثلها وللحسنة عشر أمثالها -.

فالإنسان لا يربط نتيجة السيئة إلا بذلك السبب الظاهري البسيط السطحي الذي يحس به آنيا في لحظة انفعالية، ولا يعرف أن النتيجة السلبية التي يحصدها من عمل إيجابي لا يستحق عليه العقاب مردها إلى أسباب حقيقية سابقة يعلمها الله وحده، أجل من أجلها هذه العقوبة ليدرك الإنسان أن الله يؤجل ولا يعجل، ويضرب النورسي مثلا لتأجيل العقوبة قائلا: "هب أن حاكما قد حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة، وأنت برئ منها، ولكن لك قضية قتل مستورة لا يعرفها إلا الله.

فالقدر الإلهي قد حكم عليك بذلك السجن، وقد عدل من أجل ذلك القتل المستور عن الناس.أما الحاكم فقد ظلمك، حيث حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة وأنت منها برئ. وهكذا ففي الشئ الواحد تظهر جهتان،جهة عدالة القدر والإيجاد الإلهي،وجهة ظلم البشر وكسبه".[٢]

فالخائض في مقولة الجزء الاختياري إذا كان مؤمنا فإنه يرد كل شيء إلى الله تعالت قدرته، ويعده مقدسا ومنزها عن إيجاد الشر، ويعتبر الأسباب الكامنة وراء الأحداث

---

(١) النورسي، صيقل الإسلام ص:٢١

(٢) النورسي، الكلمات ص:٥٤٣

خيرها وشرها من صنعه، حيث لا يعرف كنهها، ولا يعرف أهداف الله منها، وينظر إلى القدر باعتباره مصدرا أساسا لكل أعمالنا، لا أن نرد سلوكنا الأخلاقي الخير إلى غرورنا، وغطرستنا، متعالين متكبرين، وأن نخنع في حالة الشر إلى القدر باعتباره سر بلائنا، وفاعل المنكرات فينا، وموجه أخلاقنا، وسالب إرادتنا، وعائق توجه الخير في وعينا. أما إذا كان الخائض في الجزء الاختياري من أهل الغفلة والكبرياء والادعاء، والباحث عن المسوغات لإظهار كفره، وتحريض الناس على المعاصي فمن الأحسن أن يتجنب الحديث في الموضوع لأن نفسه الأمارة بالسوء لا تحيله إلا على الأسباب التي كانت وراء خيبته، وفشله في الحياة الدنيا بله في الحياة الآخرة، ويأسه من الحياة خيرها وشرها، "فحينئذ يكون الخوض في القدر والجزء الاختياري باطلا لا أساس له،ولا يعني سوى دسيسة نفسية تحاول التملص من المسؤولية مما ينافي حكمة القدر وسر الجزء الاختياري".

والمؤمن المتذبذب في إيمانه، والمتشكك في القيم الدينية يوسوس له شيطانه في طرح الأسئلة المدسوسة من قبيل، كيف يمكن التوفيق بين القدر والجزء الاختياري ؟ فإذا كانت كل أعمالنا مفروضة علينا سلفا، ولا يمكن التغيير فيها، ولا نمثل نحن فيها إلا جانبا سلبيا خانعا، لا قدرة لنا على فعل أي شئ، فكيف نعاقب على أفعالنا ؟ وإذا كنا مسؤولين عن أفعالنا بإرادتنا في جزئنا الاختياري،فكيف نرد على مدعي القدر الإلهي؟

إن النورسي يحاول الإجابة عن هذا السؤال، بان الحكمة الإلهية في القدر والجزء الاختياري خافية عنا، ولا يمكن إدراك كنهها، ولا أهدافها القريبة أو البعيدة، ولكن عدم علمنا بكيفية التوفيق لا يدل على عدم وجوده[١]، وإن الجزء الاختياري لا يتنافى مع القدر، لأن القدر علم الهي، لا ندركه بحواسنا التي هي الوساطة بين أنفسنا وعالمنا الخارجي "وقد تعلق العلم النهائي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله".[٢]

وما أحوجنا اليوم، أكثر من أي وقت مضى،بالجزء الاختياري المرتبط بالإيمان الديني، لان صراع الكنيسة المسيحية –ولا أقول الدين- مع العلماء، نتج عنه إصدار فتاوى من علماء الطبيعة تأمر بفصل الدين عن الدولة، وفصل القوانين الوضعية عن

(١) النورسي، الكلمات، ص:٥٤٥

(٢) النورسي، الكلمات، ص:٥٤٥

القوانين الدينية، مما جعل العلماء يتوجهون إلى المادة فكانت الثورة الصناعية التي أحالت العالم من عالم ذي أخلاق دينية إلى عالم ذي أخلاق مادية، تصارع الدين، وتسفه أخلاقه، وتتطاول على بارئه، فاستحالت المدنية الغربية المسيحية إلى مدنية مارقة لا تعير الاهتمام بالإنسان في علاقته بريه، ومراعاة فطرته التي فطره الله عليها، وتربية روحه، فالمادة هي إله الكون، ونظام الطبيعة نظام ذاتي، وليس من إبداع منظم أعلى، الذي خلقنا من تراب ثم من نطفة فعلقة فمضغة، إلى أن صورنا في أحسن صورة، ثم خلقنا أزواجا، وخلق من الزوجين الذكر والأنثى، وهو الذي منحنا القدرة والإرادة على تمثل الواقع وتفكيكه، وإعادة تركيبه وترتيبه بما يتوافق وكياننا الروحي والاجتماعي والإنساني المستند إلى دستوره السماوي.

فالمدنية الحديثة القائمة على النمط المعرفي الحديث، تستند إلى أصلين اثنين:

الأصل الأول: لا أخلاق في العلم، الأصل الثاني: لا غيب في العقل. فالأصل الأول لا يجعل مكانا "للاعتبارات التي تصدر عن التسليم بقيم معنوية مخصوصة أو عن العمل بقواعد سلوكية معينة".[١]

أما الأصل الثاني فيستند إلى مبدأ التجربة الحسية، وقدرة العقل على معرفة كنه الأشياء ونظامها، ونتج عن هذين الأصلين تفاخر بالمادة والصناعات المتعددة التي تفتخر بالانتصار للعقل المجرد، والأخلاق المادية، التي تعادي الأخلاق الدينية والروحية مما جعل أحد الباحثين يقول: "إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران".[٢]

فكانت النتيجة من هذا التوجه أن خلقت إنسانا حائرا في حياته، قلقا عن مصيره، متشككا في الهدف من وجوده، فهو يكد ويسعى لغاية مادية لا يعرف منتهاها، ويشارك في تكتلات سياسية تتضارب مصالحها، ولا يعرف موقعه فيها، ولا هدفه منها، ويسهم في خلق الصراعات بين الأفراد والدول للجلوس على كرسي السلطة، للتسلط

---

(١) طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص:٩٢

(٢) سفر بن عبدالرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص١٢٢، www.sahwah.net

والاستبداد، ولا ننكر أن في هذه المدنية خيرا كثيرا، فإيجابيتها وسلبيتها كانت قضاء وقدرا، ولكن الله تعالى الذي أراد لنا الجزء الاختياري سمح بأن نختار ما هو إيجابي يتناغم مع إيماننا الديني، لأنه المعيار الذي نقيس به العمل الإيجابي والعمل السلبي، فالقران الكريم حث على العلم والمعرفة التي تؤدي إلى سمو الفكر، وطهارة الروح، وزرع التسامح، وتفضيل الحوار البناء، والمجادلة بالتي هي أحسن، ..... ولقد كان النورسي واعيا ومدركا لهذه المدنية الحديثة التي تجرف الفرد إلى ما لا تحمد عقباه، إن لم يتسلح بسلاح الإيمان، وبشريعة القران، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتهافت على امتلاك الأسلحة الفتاكة، وغطرسة الفرد والدول، ومحاولة سيطرة البعض على الآخر، وطمع الشخص في خيرات الآخر، والاستبداد بالحكم، وخلق عالم ضعيف وعالم قوي، وإنسان فقير وآخر غني، كان من نتيجة هذه الأمور أن عانت البشرية من ويلات الحرب العالمية الثانية، ورأينا من القسوة والاستبداد والتحكم، والدمار الشامل، ووقع المغلوب تحت تأثير الاستعمار بشقيه السياسي والاقتصادي، "وظهر للناس بجلاء تام أن الحياة الدنيا فانية لا ريب فيها، وان زخارف المدنية خادعة ومخدرة لا تجدي شيئا".[1]

ويرى النورسي أن الأسس التربوية والأخلاقية التي تعتمدها المدنية الحديثة والقرآن الكريم مختلفة، ولهذا يعطي كل منهما ثمارا مختلفة، فالفلسفة التي تقوم على المدنية الحديثة تسعى إلى: ١) القوة. ٢) المنفعة. ٣) الصراع. ٤) العنصرية. وثمرة القوة الاعتداء على الخير والتسلط والاستبداد، وشأن المنفعة التزاحم الذي لا يسمح للناس برغد العيش، ولا يلبي لهم حاجاتهم اليومية، ونتيجة الصراع النزاع والجدال المؤدي إلى الخراب، وطبيعة العنصرية الاعتداء والغطرسة، واحتكار الخيرات، وإقصاء المغلوب على أمره، وحرمانه، وتحقير الأقليات، أما التربية الخلقية القائمة على القرآن الكريم فتعتمد ١) الحق ٢) نيل الفضائل الإنسانية ٣) التعاون ٤) رابطة الدين، فالحق يؤدي إلى العدالة بدل القوة التي تؤدي إلى الاستقواء، والتسلط، وحرمان الآخر، والفضيلة الدينية تثمر التساند بين الناس بدل التزاحم والتدافع السلبي، أما التعاون فهدفه إغاثة المقهور، وإنقاذ الغريق، والإسهام في التكامل، والمنفعة الكلية عوض المنفعة الذاتية، والإيثار بدل الأثرة والأنانية،والرابطة الدينية " تربط فئات

(١) النورسي، الكلمات، ص:١٧٢

الجماعات بدلا من العنصرية والقومية ...وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية".[١]

والمدنية الحديثة هي التي أشاعت النظام الربوي الذي قهر الشعوب المستضعفة، وهي التي أمدت هذا العالم بكثير من المغريات المادية التي لا يستطيع الإنسان الضعيف الإيمان مقاومتها، وليس له ذخيرة مالية تسعفه لاقتنائها، ولم يجد ملجأ يلجأ إليه، أو ملاذا يلوذ به إلا هذه الأبناك الربوية التي تلتهم قوته اليومي، وتكبح نفسه الطموحة، وتشعل نار الفتنة في منزله، وتجعله عبدا لأصحاب رؤوس الأموال يسخرونه كيفما شاؤوا لان الأجرة اليومية البسيطة لا تستطيع تغطية التكلفة الباهظة للمغريات المتكاثرة، والزخارف الخادعة، وهي التي مزقت نسيج العائلة، ونمت في نفوس أفراد الأسرة الميل إلى الفردية والأنانية، ولم يعد للابن علاقة روحية بأبيه، ولم يعد الأب يعير الاهتمام بابنه أو زوجته، ولم تعد الأم تلك اللحمة التي تضم أفراد أسرتها، فانتقلت الأسرة من نعيم أرسته الديانات السماوية إلى جحيم أبدعته الديانات المادية، مع أن الحياة العائلية "هي مركز تجمع الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الأمين. وإن بيت كل فرد هو عالمه ودنياه الخاصة. فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلا بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص والرحمة المتبادلة الوفية إلا بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفقة دائمة، ومعية سرمدية، في زمن لانهاية له، وتحت ظل حياة لا حدود لها، تربطها علاقات أبوة محترمة مرموقة، وأخوة خالصة نقية، وصداقة وفية نزيهة"[٢] ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.[٣] ولهذا الزخم المادي، والإغراء النفسي، والتعدد الاجتماعي والطبقي، والتلوث الأخلاقي الذي لا مفر منه زودنا الله تعالى بالجزء

(١) نفسه، ص:١٤٥

(٢) النورسي، الكلمات، ص:١٠٥

(٣) النورسي، صيقل الاسلام،، ٣٥٧

الاختياري ليبلونا، وقدم لنا المفاتيح السحرية في كتابه العزيز لنحسن اختيارنا، ولنرد نفسنا الأمارة بالسوء إلى الصراط المستقيم، وكل هذا لا يتأتى إلا بالإيمان القوي بالرسالة النبوية الشريفة، وما حملته من بلاسم تشفي المغرور من غروره، والمستبد من استبداده، والقوي من استقوائه، والكافر من عصيانه، والغاوي من غيه. فالإيمان ثم الإيمان ثم الإيمان، ولا أخلاق بدون إيمان، لأنه "يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين. ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي. فطلب المسببات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى، وان المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده".[1]

لائحة المراجع

١- **القرآن الكريم**

٢- **صحيح البخاري**

٣- **محمد بدوي**، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.

٤- **الجاحظ**، الحيوان ج٧، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ت١٣٨٧ه ١٩٦٨م.

٥- **سفر بن عبدالرحمن الحوالي**، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، www.sahwah.net.

٦- **طه عبدالرحمن**، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي ط١، ٢٠٠٠ الدار البيضاء، المغرب.

٧- **عزت السيد احمد**، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، اتحاد كتاب العرب، دمشق٢٠٠٥.

٨- **النورسي**، سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار"سوزلر"للنشر،استانبول،ط٣، ت١٤١٩ت١٩٩٨م.

٩- **النورسي سعيد**، اللمعات، ص:١١٣ ترجمة إحسان قاسم الصالحي دار"سوزلر" للنشر، استانبول، ط١، ت١٤١٣ ت١٩٩٣م.

١٠- **النورسي سعيد**، صيقل الإسلام، كليات رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي رقم ٨ قرص مدمج.

---

(١) النورسي، الكلمات، ٣٥٣